مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
المجلد7،العدد 2 – جوان 2020

أصول نظريات التعلم في التراث العربي.

The Origins of Learning Theories in Arab Heritage

ط.د.عطاء الله بوسالمي*، جامعة الأغواط ، الجزائر.
bousalmiattallah@gmail.com
أ.د. الطيب دبة، جامعة الأغواط ، الجزائر.
deebatayeb@gmail.com

تاريخ التسليم:(2020/01/12)، تاريخ التقييم:(2019/02/25)،تاريخ القبول:(2020/03/08)

ملخص :

إن حقل التعليمية رغم حداثة نشأته واستقلاله كعلم قائم بحدّ ذاته من حيث الموضوع والمنهج والمصطلحات. إلاّ أنه قديم التناول، فقد اشتغل على مفاهيمه الباحثون من مختلف المشارب والمدارس، فنجده مبثوثا في شتى الفنون وذلك لمشروعية طرحه وأهميته أفكاره، وبعد رحلة البحث العلمي أصبحت التعليمية علما له باحثيه وأسسه التي تميّزه وأطروحاته التي تشرحه وتوضّح مبادئه وتصوّراته وفق شبكة العلاقات التي تربط أواصله وأجزائه، فإن كان الدرس الحديث قد تناول هذه الأفكار التعليمية بشكل خاضع لما وصل إليه من منهج في التناول وطريقة في الطرح أردت من خلال هذه الوريقات ان أعرج عن بعض المبادئ التعليمية وذلك بالتنقيب عليها في المدونة التراثية العربية.

الكلمات المفتاحية: المعلم، المتعلم، المنهاج، التعلم، الأصول، التراث.

Abstract :

The field of education ,despite the novelty of its creation and its independence as a science in itself in terms of subject and methodology and terminology but he is old worked on the concepts of researchers from different bands and schools and the legitimacy of the introduction and importance of his ideas ,we talked about the lesson had adrdressed these padagogical ideas are subject to what came to him from the approach in manipulation and the method of subtraction you want to leave during these leaflets some principles of education and shadow prospecting in the traditional Arabic code.

Keywords : the teacher, The learner, The curriculum, Learning, Origins, Heritage.

.

* **المؤلف المراسل: ط.د.عطاء الله بوسالمي ،الإيميل: bousalmiattallah@gmail.com**

مقدمة:

لا يزال التراث العربي يبهرنا بكنوزه، وإفاداته الواسعة، لاسيما وأن علماءنا العرب القدامى اتسموا بالموسوعية في التفكير والخصوبة الحضارية، بحيث نهلوا من تراث الأمم التي سبقتهم، وأضافوا بإبداع.

وضمن هذا الثراء الذي لمسناه، لاحظنا وجود مباحث في كتبٍ تراثية تتناول قضية التعلم والاكتساب وطرق تحصيل المعرفة، بما يشابه ما تكشف عنه نظريات التعلم الحديثة بمختلف أشكالها، فأردنا أن نطرح مجموعة من التساؤلات، من أهمها: هل يوجد تمثلات للنظريات التعلمية الحديثة في التراث العربي؟ كيف نظر علماءنا القدامى في قضية التعلم وآلياته؟ وهل يمكن للطروحات التعلمية القديمة أن تتفق مع الطروحات الحديثة لكي يحدث التلاقح والإمداد المعرفي؟ وإن تحقق الإجابة عن هذه الأسئلة بالإيجاب فسيصير الطرح القديم في التعلم بمثابه أصول للطرح الحديث له.

إشكالية البحث: تحاول هذه الدراسة الإجابة على التساؤل الرئيسي التالي:

اين تجلت الأفكار التعلمية التراثية في النسيج المفاهيمي الحديث ؟

أهمية البحث: يعتبر محاولة استقراء المدونة التراثية في حقل التعليم وتمظهراتها في الدرس التعليمي الحديث .

أهدف البحث: وضع اليد على أصول النظريات التعليمية الحديث في التراث العربي .

2. تحديد المفاهيم:

1.2. مفهوم الأصول:

جاء في معجم "ابن منظور" (ت711ه) لفظة (أصل):" الأصلُ: أسفل كل شيء، وجمعه أصول..."(ابن منظور،1981،ص16)، و:" ...يقال: اِستأصلتُ هذه الشجرة، أي ثبت أصلها، واستأصل الله بني فلان إذا لم يدعْ لهم أصلاً، واستأصله؛ أي قلعه من أصله"(المصدر نفسه ص 16)، فالأصول هي جمع أصل، التي تعني العودة إلى الأسفل وإلى الوراء والعمق، كالشجرة التي يصير لها أصلٌ لما تتثبت، ولكل إنسان أصل يمكن له أن ينقطع أو أن يبتر.

أما في معجم "كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم" فقد ورد لفظ "الأصل":" (Origin–Origine) بفتح الأول وسكون الصاد المهملة. في اللغة ما يبتنى عليه غيره من حيث إنه يبتنى عليه غيره، و:" قيل الأصل المحتاج إليه، والفرع المحتاج"(التهانوي،1996، ص213)، فلكل أصل فرع، ويمكن لهذا الأخير أن يتضح أكثر انطلاقا من الأصل، والأصل دعم وتقوية للفروع، وعليه تبتنى الأمور والأشياء.

2.2. مفهوم التعلم:

1.2.2. لغة:

كلمة التعلم آتية من لفظة (عَلِمَ) التي تعني في معجم "ابن منظور":" وعلمت الشيء أعلمه علمًا: عرفته. قال ابن بري: وتقول عَلِمَ وفقهَ؛ أي تعلّم وتفقّه، وعَلُمَ وفقُهَ؛ أي ساد العلماءَ والفقهاءَ"، و:" ...علّمه العلم وأعلَمَهُ إيّاه فتعلّمه، وفرّق سيبويه بينهما فقال: علِمتُ كأذِنتُ، وأعلمتُ كآذنتُ، وعلّمته الشيء فتعلّم ابن منظور،1981، ص417)؛ فمن معاني العلم هو المعرفة والفقه والفهم، وهو يأتي ببذل جهدٍ ودراية لتوصيل أفكار بطرائق مضبوطة ومدروسة يعقلها السامع ويلتزم بمضمونها.

2.2.2. اصطلاحا:

إن التعلم:"...أمرٌ مألوفٌ في حياتنا الاعتيادية ولكن تعريفه تعريفا علميا بغية الوصول إلى فهم حقيقي لماهيته يظل مسألة مثيرة للجدل. وقلّما نجد من الخبراء من يتفق مع غيره، وذلك بسبب التعريفات واختلاف النظريات، وإذا أردنا أن نعرّف التعلم تعريفا بسيطًا؛ يمكننا القول أنّه تعديل للسلوك من خلال الخبرة"(ناصف، 1983، ص15)؛ فلقد أخذ الاهتمام بالتعلم ونظرياته اهتماما بالغا في العصر الحديث من طرف العلماء والباحثين، وهناك اختلاف شديد في ضبط مفهومه، ويمكننا أن نقول بأن التعلم يتعلق بتغيير في سلوكات وتصرفات الأفراد، لتأخذ وجهات ومناحٍ نريدها ونستهدفها بناء على خبراتنا وتجاربنا وقدرتنا على التوجيه والتأثير.

يعرّف "أنور محمد الشرقاوي" التعلم بقوله:" التعلم هو عملية تغير شبه دائم في سلوك الفرد، لا يلاحظ بشكل مباشر، ولكن يستدل عليه من السلوك، ويتكون نتيجة الممارسة، كما يظهر في تغير الأداء لدى الكائن الحي، والتعلم على هذا النحو يتطلب ضرورة أن يتعرض الكائن الحي للموقف السلوكي المراد تعلمه. ولما كان التغير في الأداء لدى الكائن الحي هو الأساس في الاستدلال على التعلم، فإننا لا نستطيع أن نقول أن كل تغير في الأداء يعتبر تعلما، لأننا لا نستطيع أن نتنبّأ بسلوك الفرد في المستقبل في بعض المواقف..."(الشرقاوي،2012، ص ص11-12)؛ فالتعلم هو عملية ونشاط دائم لاستهداف سلوكات بعينها وتوجيهها، يمكن لهذه السلوكات أن تستنبطها ونلحظها بطريقة غير مباشرة، ويأتي هذا التغيير بالمران والممارسة، وليست كل السلوكات الملاحظة تعتبر تعلما، فمنها ما لا يستقر ولا يستديم.

وهناك تعريفات عديدة للتعلم، بحيث في كل مرة تتغير التعريفات تبِعًا لتطور الأبحاث ورقيها، نأخذ تعريفًا أكثر جدّةً مفاده:" ...التعلم هو كل ما يكتسبه الإنسان عن طريق الممارسة والخبرة، وهو الوجه الآخر لعملية التعليم ونتاج لها، ويقترن بها، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. وعند الحديث عن التعليم لابد من تسليط الضوء على التعلم لتكوين صورة واضحة ومكتملة حول الموضوع...يختلف التعليم عن التعلم؛ في أن التعليم نشاط يقوم به شخص مؤهل، لتسهيل اكتساب المتعلم للمعارف والمهارات

المطلوبة، أما التعلم فهو الجهود الذاتية التي تقوم بها الذات المتعلمة لاكتساب ما تسعى إلى تحصيلها من معارف ومهارات"(الزهراني،2012، ص13)؛ فالإنسان يكتسب كل يوم معارف عن طريق الممارسات والأنشطة التي يقوم بها، ويمكن لعملية التعليم أن تحدث تعلما عن طريق توظيف أشخاص لديهم مؤهلات ومعارف وخبرات للتحصيل والاكتساب المعرفي الممنهج، ويمكن لأي إنسان كان أن يتعلم؛ بأن يبذل مجهودًا وأنشطة يهدف بها إلى تحصيل المعرفة وصقل المواهب وتوجيه السلوكات والخبرات، وإظهار الطاقات الكامنة. يتوقف استمرار أي مجموعة بشرية على مدى إعداد أفرادها وتكوينهم ونقل الموروث الثقافي والفكري لهم ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تعليمهم . فالتعليم ببساطة هو تزويد المتعلم بسلوكات ومفاهيم تعزز مكتسباته وتطور قدراته، فتتسع بذلك مساحة معرفته ورقعة حركته، فاعتقد قد كان مفهوم التعليم في بدايته رغم بساطته أوسع مما أصبح عليه فيما بعد حيث انحصر في إكساب المتعلم معلومات جافة يستظهرها حين الطلب .

ومع ما شهده المجتمع الإنساني من تطور على جميع الأصعدة تمت مراجعة الرصيد المعرفي لمختلف العلوم ،فظهرت أفكار جديدة، وانسخلت مفاهيم من مفاهيم و استقلت بنفسها ، وطفت علوم بشكل مستقل بعدما كانت جزء من منظومة مفاهيمية كبرى وكسبت مشروعيتها. ومن هذه العلوم "التعليمية" هذا المصطلح الحديث من حيث اللفظ والقديم من حيث ارهاصاته المفاهيمية الأولى، فالتعليمية في التراث الإنساني كانت غالبا تتمحور حول تلقين المتعلم المعرفة في معزل عن كل المؤثرات التي تحيط بها. فكانت مهارة الاستظهار والاسترجاع هدفها الذي ترمي إليه ، ومع مرور الزمن بدأت تلك المعزولات تجد لنفسها شرعية الاهتمام لما أثبتت دورها في بناء عملية التعليم .

3.2. التعليمية:

1.3.2. لغة:

جاء في لسان العرب: «علم بالشيء شعر، يقال ما علمت بخبر قدومه ما شعرت، وعلم الأمر تعلمه وأتقنه لسان الغرب،. فالوصول إلى مرحلة التعلم والإتقان يمرّ بمراحل يبذل خلالها الفرد جهودا يتمكّن خلالها من إتقان اللّغة والتعرّف على خباياها.

أما منجد اللّغة والأعلام فجاء بمعنى: «فعلم تعليما وعلاما، وعلمه الصنعة، وغيرها: جعله يعلمها، وأعلمه بالأمر، وبالأمر أطلعه» (المنجد في اللغة والأدب، ص ص 225–227)

فمادة علم هو حدوث تغيير في المتعلّم نحو الأفضل من أجل إكسابه معارف جديدة. وبالتالي يصبح مطّلعا بالأمور الحادثة.

التعلمية أو التعليمية هي: «ترجمة للكلمة didactique التي أُشتقّت من الكلمة اليونانية Didaktilos، والتي تُطلق على نوع من الشعر يتناول شعر معارف علمية أو تقنية (الشعر التعليمي)» (لبصيص، 2004، ص 131).

فهي «تعني فلنتعلم، وتعني أيضا نوعا من الشعر يدور حول عرض مذهب متعلّق بمعارف علمية أو تقنية»(جوامع، 2006، ص27). وبهذا نكون أمام معارف علمية تنقل من معلّم إلى متعلم عن طريق الشعر. وهو أشبه بالشعر التعليمي عند المسلمين، أو ما يسمّى بالمنظومات النحوية والفقهية والنّحوية، التي تهدف إلى تسهيل التعليم عن طريق حفظ المعلومات الواردة فيها ألفية ابن مالك في النحو.

– عرّفها سميث (1936) بأنّها: «فرع من فروع التربية، موضوعها خلاصة المكوّنات والعلاقات بين الوضعيات التربوية وموضوعاتها ووسائطها ووسائلها، وكل ذلك في إطار وضعية بيداغوجية، وبعبارة أخرى يتعلّق موضوعها بالتخطيط للوضعية البيداغوجية، وكيفية مراقبتها وتعديلها عند الضرورة»(لبصيص، 2004، ص131).

وبذلك التعليمية في نظر **سميث** فرع من فروع التربية، تتكوّن من وضعيات تعلّمية تعتمد على وسائل ووسائط تربوية تسهّل عملية إيصالها إلى متعلّم في إطار بيداغوجي. **فسميث** يحمل التصوّر البيداغوجي للتعليمية. فما هي البيداغوجيا؟

«كلمة **بيداغوجية**، كلمة ذات أصل يوناني تتكون من مقطعين هما: Peda وتعني الطفل، وGogie وتعني علم، أي علم وفن تربية الطفل. وعند جمع المقطعين Pédagogie يصبح المعنى الكامل للمصطلح هو علم تربية الطفل»(شرقي ، 2012، ص53) .

ومن المعلوم، أن كلمة البيداغوجيا « إغريقية الأصل، وكانت تدل على العبد الذي يرافق الطفل في تنقلاته، وبخاصة من البيت إلى المدرسة. ولقد تطور استعمال الكلمة، وأصبح يدل على المربي (Pédagogue). والبيداغوجيا هي جملة الأنشطة التعليمية– التعلمية التي تتم ممارستها من قبل المعلمين والمتعلمين» (أوزي،2006، ص150).

ويذهب محمد الدريج إلى أنّ التعليمية هي: «الدّراسة العلمية لطرق التّدريس وتقنياته ولأشكال تنظيم مواقف التعليم الذي يخضع لها التلميذ قصد بلوغ الأهداف المنشودة، سواء على المستوى العقلي أو الوجداني أو الحس الحركي»(الدريج، 2000،ص3).

فالدّريج يذهب إلى أن التعليمية هي: علم التدريس لأنه مرتبط بالدّراسة العلمية، يقوم هذا العلم على طرائق محددة، كما يقوم على التقنية القائم على الوسائل والوسائط المتطورة مثل الحاسوب المستخدم في التدريس، للوصول إلى الأهداف. تشمل المستويات الثلاثة وهي: المستوى المعرفي، والوجداني

(العاطفي)، والحس الحركي. وبهذا فنحن أمام الانتقال في علم التدريس من الفنية إلى التقنية من جهة، والاعتماد على التدريس بالأهداف لا الكفاءات.

-أما **ميالاري** فعرّفها سنة 1979م بأنّها: «مجموعة طرق وأساليب وتقنيات التعليم» (الدريج،2000، ص23).

فالتعليمية حسب **ميالاري** طرق تعليم يتفق عليها كل القائمون على العملية التعليمية وأساليب تعلّمية تختلف من أستاذ لآخر، وتقنيات تعتمد على الجانب التكنولوجي في إيصال المعارف.

- **أما أستولفي** فيقول: «تعليمية العلوم هي حقل الأبحاث المتطورة التي تناقش خطّ -سلسلة- الأعمال المعمّقة الخاصة بأهداف التّعليم العلميّة، تطوير المناهج، تحسين شروط التعلم من أجل تلاميذ مواكبين لنموهم الفكري، أنها تقدم أيضا مثل عنصر تركيبيّ متنام أولي ومستمر للمعلّمين»(بن ميسية،2009، ص32).

فالتعليمية علم موضوعه التعليم والتعلم، يهدف إلى تطوير المناهج ليتماشى ونموهم الفكري. فهي تبحث في التعليم والتعلّم لوضع مناهج لتراعي قدرات المتعلمين، ويعتمد عليها المتعلمون أثناء ممارسة العملية التعليمية التعلمية.

- كما أنّ التعليمية تعتمد على طرائق وأساليب ووسائل تقنية، وتراعي مستوى المتعلمين و قدراتهم العقلية وميولاتهم واتجاهاتهم في إكسابهم معارف ومعلومات جديدة.

و قد عرفت التعليمية بعدّة مصطلحات أهمها:

Didactique

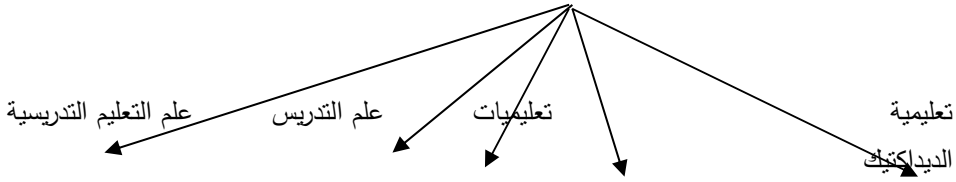

4.2. أقطاب التعليمية:

عناصر العملية التعليمية تقوم على معلم الذي ينظم المادة التعليمية ويقدمها، ومتعلم يستقبل المادة التعليمية، ومعارف تحملها المادة التعليمية.

وهكذا يضع ايف شوفالار التعلمية في قلب مثلث، يتألف من معارف ومن المعلم، ومن المتعلمين:

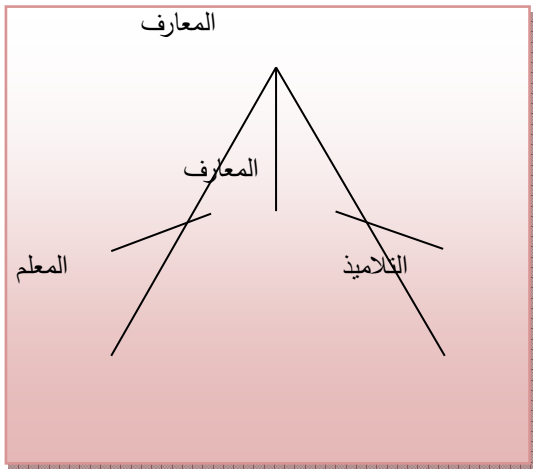

غير أنّ الدكتور أحمد حساني قسم عناصر العملية البيداغوجية إلى: المعلم، المتعلم، الطريقة (حساني، 2009، ص ص 41 -42).

3. التراث العربي:

يمكن أن نحدد مفهوم "التراث" انطلاقا من معجم "ابن منظور"، فنجد مادة (ورث)، حيث جاء في المعجم:" ...الوِرثُ والوَرثُ والإرثُ والوِراثُ والإراثُ والتراثُ واحدٌ. الجوهري: الميراثُ أصله مِوْراثٌ، انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها، والتّراثُ أصله التاء فيه واو... وتوارثناه: ورثَهُ بعضنا عن بعض قِدْمًا. ويقال: ورّثتُ فلانا من فلان أي جعلت ميراثه له"(ابن منظور،1981، ص3083)؛ فمن معاني التراث هو التلقي من فرد إلى فردٍ آخر، ومن جيل إلى آخر بالتداول والمحافظة، مثلما هو كذلك مع موروثنا العربي الذي أبدع فيه أسلافنا وسلموه لنا بأمانة ينبغي التعامل معها باهتمام كبير، حيث:" يعدّ التراث ثروة حضارية وثقافية تراكمت عبر القرون، ذات تجارب إنسانية ثرية ومتنوعة، فهو يمثل هوية الشعوب والأمم. ومن هذا المفهوم كان لابد من التمسك بأصالته وعراقته والمحافظة عليه. والتراث هو التاريخ المادي والمعنوي، والمرآة الحقيقية لأية حضارة. فعلاقة الإنسان بالتراث علاقة عضوية تمثل هويته وجذوره الثقافية، وترتبط في وعيه بأبعاد حضارية، وتاريخية، ومعمارية، ودينية، واجتماعية، وسياسية، وفنية على حد سواء"(مجمع اللغة العربية، 1973، ص ص 526-527)؛ وانطلاقا من قيمة التراث العربي وثرائه أردنا أن نحاول رصد أصول نظريات التعلم الحديثة، ووجوه تمثلاتها في دراسات العرب القدامى، كمجهودات تتضمن العديد من الأنساق المعرفية المتداخلة، محاولين إجراء قراءات في آرائهم لنتلمس جوانب من الأطروحات الحديثة في التعلم وآلياته ووسائله وطرقه.

1.3. التعلم والتراث العربي:

سوف نقف عند علماء عرب قدامى تناولوا التعلم وآلياته متتبعين آرائهم ونسردهم حسب تاريخ وفياتهم:

1.1.3. ابن سينا (ت428هـ):

لابن سينا أفكار تعليمية تعلمية رائعة في كتاب "القانون في الطب" نحاول التقرب من بعضها.

تفطّن "ابن سينا" إلى أهمية الجانب "الحس حركي" في نمو الطفل وتربيته وصحته الجسدية والعقلية، حيث يقول عن "الرياضة" من أنها:"...حركة إرادية تضطر إلى التنفس العظيم المتواتر، والموفق لاستعمالها على جهة اعتدالها في وقتها به غناء عن كل علاج تقتضيه الأمراض المادية، والأمراض المزاجية التي تتبعها، وتحدث عنها، وذلك إذا كان سائر تدبيره موافقا صوابا"(ابن سينا،2007، ص 13)؛ فمثلما تلح مقاربات التعلم الحديثة على الجانب الحركي في تربية التلميذ وتسهيل تعلمه بصفاء ذهنه وتعديل سيكولوجيته، كان ابن سينا يلح على ممارسة الرياضة لأنها تنفّس عن الطفل حينما يمارسها بانتظام لأنها تقيه من الأمراض التي تؤدّي إلى تعكّر المزاج والنفس، فتزيد بذلك قدرات العقل على التلقي والفهم وقوة النشاط.

وقد كان لابن سينا في كتابه "القانون في الطب" عدة أبعاد تربوية للأطفال والكبار على حدٍّ سواء حيث يقدم لنا نصائح تتعلق بكيفية تربية الطفل، فيقول:" يجب أن يكون وكد العناية مصروفا إلى مراعاة أخلاق الصبي فيعدل، وذلك بأن يحفظ كيلا يعرض له غضب شديد أو خوف شديد أو غمٌّ أو سهر، وذلك بأن يتأمل كل وقت ما الذي يشتهيه ويحنّ إليه فيتقرّب إليه، وما الذي يكرهه فينحى عن وجهه، وفي ذلك منفعتان: إحداهما في نفسه بأن ينشأ من الطفولة حسن الأخلاق ويصير ذلك له ملكة لازمة، و الثانية لبدنه فإنّه كما أن الأخلاق الرديئة تابعة لأنواع سوء المزاج، فكذلك إذا حدثت عن العادة استتبعت سوء المزاج المناسب لها"(ابن سينا،1999،ص27). وهو ما يناسب مفهوم التعزيز في التربية والتعليم، فإن النفوس تنفر من الأشياء التي تكرهها، فينبغي تقديم الأمور إلى الطفل في قوالب وأشكال محببة إليه، أو تدعو نفسه إلى الإعجاب بما يعرض عليها، وكلما أحب طفلٌ شيئا كلما حسنت أخلاقه وهدأت نفسه واستكانت وصارت مجدة ونشطة.

يرى "ابن سينا" أن طبع الطفل له دخلٌ في إبداعه، وفي نجاحه وحسن تعلمه، فيقول:" وربما نافر طباع إنسان جميع الآداب والصنائع فلم يعلق منها بشيء، ومن ذلك أن أناسا من أهل العقل راموا تأديب أولادهم واجتهدوا في ذلك، وأنفقوا فيه الأموال فلم يدركوا من ذلك ما حاولوا. فلذلك ينبغي لمدبر الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولا طبع الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك، فإذا اختار له إحدى الصناعات تعرّف قدر ميله إليها ورغبته فيها، ونظر هل جرت منه

على عرفان أم لا، وهل أدواته وآلاته مساعدةٌ له عليها أم خاذلة ثم يبتّ العزم، فإن ذلك أحزم في التدبير..."(بن مالك، 2006، ص103)؛ فحسن توجيه التلميذ ضرورية في نجاحه، لأن طبعه وإمكانياته العقلية والنفسية هي من يصنع مستقبله، ولا يتأتى ذلك إلا باختباره وملاحظته من طرف معلّمه أوّلاً، ووالديه ثانيا، وكذلك من المدير والمستشار التربوي ثالثا، فليس المال والوسائل هي من تحدد نجاح التلميذ، وإنما يصير النجاح محققا عندما يضاف عنصر الرغبة المبنية على القدرات الكامنة من الذكاء والفطنة وعلو الهمة.

2.1.3. أبو حامد الغزالي (ت505هـ):

للغزالي أفكار قيمة حول التعلم وصفاته ووسائله، ومن أهم ما لفت انتباهنا من آرائه "الأسلوب الأمثل" للتعامل مع التعلم، حيث نبّه إلى دور الليونة في التعلم. ينبغي على المعلم:" أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض إن أمكن ولا يصرّح. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ. فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف"(الرفاعي،1988،ص113)؛ فالرقة والذكاء في توجيه المتعلمين هي التي تصنع الفارق وتتيح تربيةً وتعليمًا أقوم، ليس التعليم بإنزال العقاب والشتائم أو الضرب، ولا ينبغي التعنف مع المتلقي، لكي لا يصير وفق أسلوب التجريح والتصريح مقاوما ومتمسّكا بالعناد والمخالفة.

يشير أبو حامد إلى قضية مهمة في التعلم تنادي بها النظريات التواصلية الحديثة، وعلى رأسها التداولية، حيث قال بأنه ينبغي:" أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله. فينفره أو يلخبط عليه عقله، اقتداءً في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال: نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم"(شرقي، 2012، ص53)؛ فمراعاة القدرة الاستيعابية للمتلقي (السامع) ضرورية في التعلم، فلابد أن تكون المادة العلمية واللغة المستعملة تتناسب والقدرات العقلية والنفسية للمتعلم، وهذا ما تنادي به الاتجاهات التواصلية في حقل التعليمية، لأن عالم المتعلم يتماشى مع أفكاره ورؤيته، وأي تلاعب بكيانه أو تشويه لنظرته تحدث اضطرابا وقلقا ونفورًا من الدّراسة.

كما أن الغزالي يشير إلى قضية تداولية أخرى، وهي مفهوم الصدق، فيشترط:" أن يكون المعلّم عاملاً بعلمه، فلا يكذّب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر. فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وكل من تناول شيئًا وقال للناس لا تتناولوه فإنّه سمٌّ مهلكٌ سخر، الناس به واتهموه، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه..."(أوزي، 2006، ص150)؛ فالغزالي بهذا الطرح يوافق طروحات التداولية الحديثة، حول معيار الصدق في القول والفعل، فإن العملية التعليمية تصير أقوم

لمّا يتخلق المعلم بأقواله التي يدلي بها، فالطالب يتلقى السلوك مثلما يتلقى المعرفة، ولما تكون المعارف تتناقض مع سلوكات المدرّس فإنه لن يكون هناك تلقٍّ وتلقين وقبول.

هذه أهم الأفكار التي شدّت تفكيرنا من كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي؛ التي تنمّ عن إدراكه العميق للتعلم وآلياته، وهي تمثلات مبكّرة للنظريات التعلمية الحديثة، يمكن أن نثري بها ونبعث ما يستحق البعث منها.

3.1.3. ابن خلدون (ت808هـ):

يعطينا "ابن خلدون" طريقة لتلقين العلوم وكيفية ذلك، فيقول:" اعلم أنّ تلقين العلوم للمتعلمين إنّما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا. يلقى عليه أوّلا مسائل من كل باب من الفنّ هي أصول ذلك الباب. ويقرّب...له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلاّ أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنّها هيّأته لفهم الفن وتحصيل مسائله (الدريج، 2000، ص3)؛ فابن خلدون يطلب التدرج في التعلم، فلا يتم ذلك دفعة واحدة، وإنّما نبدأ من البسيط والأصل في العلوم لنتفرع وننتشر في ذلك، ونراعي مبدئيا الشرح بالعموم، لتحصل التهيئة وبناء القاعدة التي تعتبر مبدأ للبناء والتدرج إلى مستويات أعلى، فيتحقق بذلك مفهوم الملكة، لأن المتلقي يمتلك مفاتيح العلم وأساسه المتين، ويراعى في ذلك الطاقة والقدرة الاستيعابية للمتعلم، وبهذه الكيفية تبدأ رحلة التعلم والتلقي بإتقان.

يرى ابن خلدون أن التعلم "ملكة فطرية" في الإنسان فيقول:" واعلم أيّها المتعلم أني أتحفك بفائدة في تعلمك، فإن تلقيتها بالقبول، وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم، وذخيرة شريفة. وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها. وذلك أن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة، فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته، وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب، وتارة يكون مبدأ العلم ما لم يكن حاصلاً بأن يتوجه إلى المطلوب...، هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر عن سائر الحيوانات"(ابن خلدون، 2004، ص123)؛ فابن خلدون بهذا الطرح المتقدم لكيفية التعلم يتفق مع تشومسكي (Tchomsky) اللساني التوليدي الذي يرى أن الاكتساب والتعلم ملكة فطرية في دماغ الإنسان وما على الإنسان إلا تشغيلها وتزويدها بالمعلومات اللازمة للنشاط، وفي هذا يتميز الإنسان عن الحيوان، وبهذا الطرح يختلف تشومسكي عن آراء السلوكيين، الذين يرون أن التعلم عند الإنسان مثله مثل التعلم لدى الحيوان. فالإنسان كائن متعلم لديه في الدماغ نظام خاص وقواعد محددة تنتظر من يعرف كيفية دفعها للنشاط والاشتغال.

يتحفنا ابن خلدون بتناوله قضية المعنى والإدراك والدور اللذين يلعبانه في التعلم، فيرى أن:"... معرفة الألفاظ ودلالاتها على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب،

فلابد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك" (بن ميسية،2009 ،ص43)؛ فينبغي الربط بين الرسوم أو الكتابة مع الدلالة التي تؤديها حتى يتم النفاذ إلى الذهن والإدراك الإنساني، كما أن دور المشافهة لا يقل أهمية في التلقين وفي النقش على الدماغ، ليحدث الفكر والتنشيط للقواعد المودعة في الذهن.

ومن هذا المنطلق نلاحظ مدى رقي الطروحات الخلدونية في حقل التعلم والتعليم، ما يجد في أفكاره طريقا إلى الدراسات والنظريات المعاصرة في ميدان التعلم.

خاتمة:

ختاما، هذه بعض الأفكار التي لفتت انتباهنا في تراثنا العربي الثمين، ما يتعلق بتمثلات نظريات التعلم الحديثة في مجهودات علمائنا العرب التراثيين، وهي تدل على مدى فهمهم العميق للعملية التعليمية ما يؤدي بنا إلى القول بضرورة إعادة قراءة جوانب من أنشطتهم وأعمالهم، وبعث ما يحتاج إلى البعث منها، بغرض الإثراء والإمداد المعرفي.

قائمة المراجع :

- ابن خلدون.(2004)، المقدمة، ج: 02، تح وتع: عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار البلخي، دمشق.
- ابن سينا.(2007)، كتاب السياسة، تق وضبط وتع: علي محمد إسبر، بدايات للنشر، ط1، سوريا.
- ابن سينا.(1999)، القانون في الطب، ج01، وضع حواشيه: محمد أمين الضنّاوي، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان.
- ابن منظور.(1981)، لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر ،ج4.
- أحمد أوزي.(2006)، المعجم الموسوعي لعلوم التربية، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب،.
- أحمد حساني.(2009)، دراسات في اللسانيات التطبيقية (حقل تعليمية اللّغات)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر.
- إصلاح عبد السلام الرفاعي.(1988)، إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، إش ومرا: عبد الصبور شاهين، ط1، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة.
- أنور محمد الشرقاوي.(2012)، التعلم، نظريات وتطبيقات، مكتبة الأنجلو مصرية، مصر.

خالد لبصيص.(2004)، التدريس العلمي والفني الشفاف بمقاربة الكفاءات والأهداف، دار التنوير، الجزائر.

- رضا جوامع.(جوان،2006)، استثمارات تعليمية اللغة في تدريس البلاغة العربية، مجلة علوم الإنسانية، جامعة باتنة،الجزائر.

– شرقي رحيمة، وبوساحة نجاة.(2012)، بيداغوجية المقاربة بالكفاءات في الممارسة التعليمية،مطبعة ورنيغي ،الجزائر
– عبد الناصر بن عبد الرحمن الزهراني.(2012)، دراسات أثرية، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، إدارة التراث العمراني، جامعة الملك سعود، الرياض.
– ليلى بن ميسية.(2009)، تعليمية اللغة العربية من خلال النّشاط المدرسي غير الصفي، مطبعة أمل ، الجزائر.
– مجمع اللّغة العربية.(1973)، المنجد في اللغة والأعلام، ط25، دار المشرق، بيروت، لبنان.
– محمد الدريج، تحليل العملية التعليمية.(2000)، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر.
– محمد بن مالك.(2006)،الفية ابن مالك في النحو، مكتبة الشعبية ،مصر.
– محمد علي التهانوي.(1996)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: رفيق العجم، علي دحروج، ط1، مكتبة لبنان، لبنان.
– مصطفى ناصف.(1983)، نظريات التعلم، عالم المعرفة، الكويت.